عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيْق

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾
(قّ:٣٧)

قصة

بقلم الفقير إلى الله

همام محمد الجرف

بسم الله الرحمن الرحيم

جاوزت الساعة منتصف الليل وهؤلاء الفتية على قارعة الطريق تحت ضوء المصباح الخافت ، وقد ضاعت ملامح وجوههم في ظلمة الليل الدامس ، ونفوسهم الضائعة ماجت مع عباب هذه الحياة حتى رست على برِّ الأمان .

اجتمع هؤلاء الفتية منذ زمن خلا على هرجٍ ومرج ، فدقات الساعة لا تُسْمَعْ وقد تهالكت مسننات الوقت لديهم فما عادوا يشعروا به .

لقد كان جلُّ اهتماماتهم في قشور هذه الحياة الزائفة وقد توقفوا عند لبابها على قارعة هذا الطريق وقد أقفر ، وما عاد فيه سوى هبَّات الرياح القاسية وبعض القطط المشردة .

وما هم بأحسن حال منها ، فهم من التشرد والضياع ما تشيب منه الرؤوس وأصوات ضحكاتهم المرتفعة مع سعالهم تزعج سكون الليل ورائحة تبغهم تخنق الهواء العليل بقبحها .

يعبر أحد سكان الحي المجاور يومياً من قربهم – يُدْعَى أبو أحمد وهو رجل فاضل ومكافح – عائداً من عمله الليلي فيبدؤون بكيل العبارات التافهة المليئة بالسخرية .

لا يردُّ أبو أحمد بل يضرب كفًّا بكف ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله هداكم الله - يقول أحدهم بسخرية اُدْعُ لنا يا شيخ - وهو يسمع قهقهاتهم وهمزهم ولمزهم بصمت ، ممّا يثير من غضبهم وغيظهم يصل أبو أحمد إلى البيت منهكاً تعباً ، بعد عناء العمل فيصلي العشاء ويطلب من الله الهداية والتوفيق .

تقول له أم أحمد هل تعرَّض لك هؤلاء الصبية مجدداً فوجهك قد كساه الحزن والأسى .

يجيب قائلاً : يا أم أحمد الأمانة لم تستطع الجبال حملها ، وفي يديك أمانة تربية الأولاد فلا أريد أن أراهم حين يكبرون على قارعة الطريق ، و تلى الآية القرآنية : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1]

تقول أم أحمد : إن شاء الله أكون على قدر المسؤولية ، فجزاك الله خيراً يا عزيزي أنت تعمل في هذا العمل المضني لتؤمن لنا الحياة الكريمة وأنا على العهد بإذن الله بأن أتحمَّل معك تربية الأولاد فلن تغفل عيني عن أحدهم ، فأنا أراجع لهم الدروس و أتابع صلواتهم ، وأعلمهم كتاب الله

(١) الأحزاب:٧٢

وأُحْسن تأديبهم وتربيتم – يقول أبو أحمد : بارك الله بك ولذا فأنا مطمِّئن البال –

تقول أم أحمد : قبَّحهم الله هؤلاء الفتية لو أحسن أهلهم تربيتهم لما كانوا على هذه الحال المزرية .

استدرك عليها أبو أحمد قائلاً : بل نَدْعُو لهم بالهداية يا أم أحمد ، و الصحبة السيئة تُعَلِّم الأولاد أمور قبيحة فانتبهِ لصحبة أبنائك الله يرضى عليك .

يضبط أبو أحمد المنبه للقيام على صلاة الفجر ، ويضع رأسه على الوسادة لينام بعد عناء العمل وضنكه .

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ...الصلاة خيرٌ من النوم ، ومع صياح الديك وصوت المنبه يستيقظ أبو أحمد ويوقظ زوجه و ولده، ليذهبا إلى المسجد .

أحمد طفل لم يتجاوز العاشرة ولكنَّه متفوق في صفِّه ومواظب على الصلاة و يتعلم القرآن على يد الشيخ في المسجد ، و يوميا يطلب من أبيه أن يوقظه لصلاة الفجر في المسجد فقلَّما يراه في النهار.

يُقبِّل أحمد يد والده، ويحنو الوالد على ولده ويدعو له بالبركة ويقول : يا أحمد أنت الكبير بين إخوتك فلتكن يا بُنَيَّ قدوةً صالحةً لهم .

يخرج الاثنان إلى المسجد وإذ بهؤلاء الفتية مازالوا على نفس الحال وكأن قارعة الطريق أصبحت ملاذهم الآمن .

يقول أحدهم أتى الشيخ - بشيء من السخرية - ولكن من معه هذه المرَّة ؟!!!!

يقترب أبو أحمد منهم ويقول يا أبنائي هلاَّ دخلتم المسجد معنا وتوضأتم وصليتم ركعتي الفجر لعلَّ الله يُصْلِح حالكم .

فيرد عليه أحدهم صلِّ أنت و الصغير وادع لنا — لكن بشيء من الخجل - .

يكمل أبو أحمد طريقه محوقلاً ، فيقول أحمد ما قصة هؤلاء الشباب يا أبي فيجيب قائلاً : قصتهم طويلة سأحكيها لك بعد الخروج من المسجد صلُّوا جماعةً وخرجوا وفي طريق العودة لم يكن أحد من الشباب على قارعة الطريق ، فيَقُص لأحمد قصة هؤلاء الشبان الضائعون .

يا بُنَيَّ هؤلاء شبان قد أخذهم الحياة بما فيها من معاصي ، فأضاعوا أنفسهم وما فلحوا في شيء و أصبحوا نكرةً في هذا الحي ، وليس لهم رفيق سوى هذا الطريق ، ولو أن حجارته تتكلم لصرخت بأعلى صوتها في وجوههم البائسة تأمرهم بالرحيل .

وصل الإثنان إلى المترل ورقد كل منهما في فراشه ، وبدأ أحمد يفكر بهذه الكلمات التي قالها والده حتى نعست عيناه ونام .

أيقظت الأم ابنها لكي ترسله إلى المدرسة فقد حان الوقت ، يستيقظ أحمد برضا نفس ويقبل يد والدته ، يغسل وجهه ويتوضأ ، يرتدي ثياب المدرسة ويذهب ، يمر بنفس الطريق فيفكر بكلام والده مرَّة أخرى ويقول لا أريد أن أكون نكرة في هذا الحي ولا في المجتمع فالله وهبني العقل ورزقني الإيمان أأضيعه في المعصية ؟؟

– سبحان الله حتى هذا الطفل تقوده فطرته السوية إلى معرفة الحق والصواب –

يلتفت يمنةً ويسرة ، مكان وقوف هؤلاء الشبان ، ظنًّا منه أن يرى أحدهم فينصحه ولكن لا أحد فقد غطُّوا في نوم عميق هروباً من مسؤوليات هذه الحياة .

يعود أحمد من المدرسة ، ويكون الوالد قد غادر إلى عمله أيضاً ، يتناول الطعام مع والدته وأخوته الصغار ، ويبدأ بتأدية فروضه المدرسية .

يؤذِّن المغرب ، فينهض أحمد بنشاطٍ ليتوضأ فقد حان موعد الصلاة فاليوم لديه درس في المسجد.

تُسرِّحُ الوالدة شعره وتقبله على جبهته ، وتقول : الله يوفقك يا بُنَي لا تحرجني مع والدك وكن قدوةً صالحة فأنت الكبير فإن كنت صالحاً سار أخوتك على طريقك ، يرد أحمد قائلا : بإذن الله يا أمي سأرفع رأسك ورأس والدي .

بعد صلاة المغرب يجتمع الأطفال في حلقة حول الشيخ يتدارسون القرآن الكريم ، حتى وصل الشيخ لقوله تعالى :

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[(١)]

سمع أحمد هذه الآية واقشعرَّ له بدنه ، وسأل الشيخ عن معناها فشرحها له بشكل مبسط ليقرب له فهمها .

انتهى الدرس وكان المؤذن قد رفع الآذان لصلاة العشاء ، صلَّى أحمد وعاد إلى المترل وهو يردِّدُ هذه الآية في صدره ، ويقول لعلَّ هؤلاء الشباب ما سمعوا هذه الآية فلو سمعوها لما كان حالهم بهذا السوء ، دخل أحمد إلى المترل البسيط الذي يكتنفه دفء العائلة بتقوى الله ، راجع دروسه ووضع رأسه على الوسادة لينام ، ليستيقظ فجراً على صوت

---

(١) الحديد:١٦

والده ، يسعد أحمد برؤية ويذهبان إلى المسجد آملاً في نفسه أن يكون هؤلاء الفتية على قارعة الطريق ، ولكن خاب أمله فلم يجد أحداً منهم ولكن ظلَّ يردد الآية في صدره ، واستمر الحال عدة أيام وفي ذات يوم وهما في الطريق إلى المسجد عبرا الطريق فوجدا الشبان على نفس حالهم الرديئة ، تفوح مع قهقهاتهم رائحة التبغ الكريهة ، و بدأ الفتية يستهزئون فالتفت أحمد و تلى الآية القرآنية بصوت واثقٍ قويٍّ ووجه يشع إيماناً ونوراً .

صمت الفتية قهراً وغيظاً ، فمن هذا الطفل الصغير حتى يعظنا ؟!! مرّ أحمد و والده وما زال أحمد يكر الآية : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾

يفتخر الوالد بوالده ، ويشعر براحة في نفسه ، بينما الفتية في تخبطٍ وغيظ ، يقول أحد هؤلاء الفتية ، فعلاً ... أَلَمْ يَأْنِ ؟ أَلَمْ يَأْنِ ؟؟

فيجيب آخر ، ما حلَّ بك يا .. هل أثَّر بك كلام الصَّبي ، فردَّ عليه قائلاً : بل كلام الله الذي نسيناه فنسينا .

صمت الجميع بخجلٍ مطبق ، وبدأ كل واحدٍ منهم يبرِّر حاله كيلا يعترف بخطاياه — قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(١) —

فردَّ أحدهم قائلاً : فليصمت الجميع والله لقد آن ، فانفضَّ الشبَّان وتكسو وجوههم الظلمة كظلمة الليل علامات ، كأنها تقول على لسان حالهم أطفل صغير يخرج منه هذا الكلام ونحن في هذه السن نَكِرَات !!!

قررَّ الفتية أن يجتمعوا على قارعة الطريق ولكن هذه المرَّة ليس على نفس الحال وإنما ليعتذروا لذلك الإنسان الفاضل الذي عانى من قلة أدبهم الكثير ، اقترب أبو أحمد مُبْتَسِم الوجه ، وألقى السلام عليهم وقد رَدُّوا بصوتٍ خافتٍ يخرج من حناجرهم وكأنه لأول مرَّة ، فاستغرب أبو أحمد وقد ابتعد عنهم قليلاً ، فقالوا بصوتٍ واحد نحن نعتذر على ما بدر منَّا طوال تلك الليالي من أذىً لك ، فالتفت إليهم قائلاً أفقد آن ؟؟ فقالوا : بإذن الله ، فأجاب سامحكم الله وغفر لكم ، فاذهبوا إذا إلى بيوتكم ولنلقاكم أنا وأحمد على صلاة الفجر بإذن الله .

ذهب كل واحدٍ منهم إلى بيته ، يفكر في حاله ويسأل الله الهداية والمغفرة ، يدخل أبو أحمد المترل مبتسماً والفرحة على وجهه ، ويقول :

---

(١) البقرة:٢٠٦

جزاك الله خيراً يا أم أحمد على التربية فقد أفلحت والله ، تردُّ أم أحمد وإيَّاك يا زوجي وحماك لنا ، و لكن ما بك ؟ فقصَّ عليها القصة بأكملها وهي في أسعد حال لما تسمع ، فنام أبو أحمد من شدة التعب ليستيقظ على صوت المؤذن ، وهما في الطريق إلى المسجد يقول لولده: لديَّ اليوم مفاجأةٌ لك يا أحمد ، يجيب مبتسماً وما هي يا والدي ، الآن ستعرف .

وعلى قارعة الطريق اجتمع الفتية بغير الهيئة فلا دخان يتصاعد ولا ضحكات ولا قهقهات ، اقترب الإثنان منهم فألقى الفتية التحية بصوتٍ واثقٍ : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أحمد ويا عم ، فردَّ أحمد السلام قائلاً : أفلقد آن ؟؟ فردَّ الجميع نعم لقد آن ، والحمد لله الذي يسرَّ لنا الهداية وبارك الله بك يا أحمد فأنت طفلٌ ولكن الإيمان زيَّن عقلك ، وأصبح يزن عقولنا جميعاً بل ويزيد .

ذهب الجميع إلى المسجد وقد فتح الله على هؤلاء الفتية ، ولم تعد حجارة الطريق تشعر بخطاهم إلاَّ إلى المسجد ولا يكسر صمت السكون إلا صوت السلام فكم اجتمعوا على ضلال ، ولكنهم اجتمعوا الآن مع أحمد ووالده على قارعة الطريق على خير .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[1]

غفر الله لي ولوالدي ولجميع المسلمين

همام محمد الجرف

الثلاثاء، ١٦ ربيع الثاني، ١٤٢٩

٢٢ نيسان، ٢٠٠٨

homam_algerf@yahoo.com



(١) الإسراء: ٩